منهج الإمام محمد عبده

في

إثبات العقيدة

(الالهيات)

دكتور

راشد محمد راشد سليمان

مدرس العقيدة والفلسفة بكلية

أصول الدين والدعوة بالمنوفية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. والصلاة و السلام على أشرف الخلق والمرسلين- سيدنا محمد- وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين. وعلى آله وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

ثم أما بعد

فقد تتابعت سنة الله فى خلقه وتكفلت رحمته تعالى بهم أن يظهر فى الأمة الإسلامية - الحين بعد الحين- علماً من أعلامها الأفذاذ ورائدا من رواد الفكر الإسلامى يجدد لها شبابها فى إيمانها ويطهر ساحة أفكارها العقدية مما علق بها من أوهام وإنحرافات. والأمام محمد عبده من ذلك النوع الذى يوزن بأمه وحده. فأنى توجهت إليه فى دراسة شخصيته قابلك فى كل جانب من جوانبها علماً بارزاً جديرا بالدراسة والبحث.

ولقد دعانى لإختيار هذا الموضوع- منهج الأمام محمد عبده فى أثبات العقيدة- عدة أسباب - من أهمها-

١- أن الإمام محمد عبده كان ومايزال موضع خصومة عنيفة بين مادحيه وقادحيه. فهو عند أنصاره محى السنة مميت البدعة وعند خصومه شاذ عن الملة. خارج عن الجماعة ماسونى ملحد لايحق لأمثاله إلا حياة النفى والبعد عن وطنه.

٢- أن العقيدة هى الأساس الذى يقوم عليه سلوك الأفراد وأخلاقهم فإذا صلح الأساس صلح مايقوم عليه وإذا فسد فسد.

٣- أن كثيرا من الباحثين- والذين كتبوا عن الإمام محمد عبده- لم يتناولوا هذا الجانب بالدراسة والبحث بل كان كل تركيزهم على إبراز الجانب الإصلاحى للفرد والمجتمع شعبا وحكومة.

٤- أن هذا الجانب هو الوحيد الذى يسوغ :لنا أن نحكم له أو عليه وذلك لايكون إلا

من خلال نصوصه هو وأقواله لامن خلال ماكتب عنه.

ومنهج الإمام فى إثبات العقيدة يتضمن مباحث ثلاثة- إلهيات نبوات، معاد، أو إلهيات وسمعيات.

ولما كان مثل هذا المقال لا يتسع لبيان منهجه كاملا. لذلك رأيت أن يكون هذا البحث فى منهجه فى الإلهيات- وإن شاء الله يعقبه مقال آخر فى النبوات والمعاد- السمعيات.

وقد إشتمل هذا البحث على :

أ- مقدمة بينت فيها أهمية الموضوع وأسباب إختيارى له.

ب- تمهيد وقد خصصته لتعريف المصطلحات والتى هو موضوع البحث-

جـ- الأساس الأول الذى تقوم عليه العقيدة عند الأمام محمد عبده وهو- النظرة والتقليد - وفيه تحدثت عن موقفه من التقليد وتأسيس العقيدة على النظر المؤدى إلى اليقين.

د-الأمر الثانى وقد خصصته للحديث عن الله ذاتا وصفات وفيه تحدثت عن أمور ثلاثة.

الأمر الأول : معرفة الذات والصفات بالكنه والحقيقة وموقف الامام محمد عبده.

الأمر الثانى : وفيه تحدثت عن صفات الذات الالهية وموقف الامام محمد عبده من هذه الصفات.

الأمر الثالث : موقف الامام محمد عبده من الصفات الخبرية .

خاتمة بينت فيها أهم النتائج التى توصل إليها الباحث من خلال هذا العرض وبيان أوجه التلاقى والإختلاف مع السابقين عليه معتزلة وأشاعرة وفلاسفة.

وأدعو الله أن اكون قد وفقت فى بيان هذا الأمر

والله من وراء القصد حسبنا ونعم النصير

الباحث

اولا : مفهوم كلمة منهج

يعرف المنهج فى اللغة بأنه الطريق الواضح.

يقول صاحب القاموس المحيط: (النهج: الطريق الواضح كالمنهج والمنهاج وأنهج وضح. وأوضح والطريق سلكه واستنهج الطريق صار نهجاً كأنهج فلان سبيل فلان سلك مسلكه.)[١]

والمنهج بهذا المعنى يطلق على الطريق مطلقاً مادياً كان أو معنوياً للوصول الى الغرض المطلوب ، وقد وردت هذه الكلمة فى القرآن الكريم مرة واحده بهذا المعنى فى قوله تعالى: " لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا"[٢]

يقول الامام الرازى: (وأما المنهاج فهو الطريق الواضح: يقال:نهجت لك الطريق وأنهجت لغتان) [٣]

واستخدم اللفظ فى الحديث بهذا المعنى اللغوى فلم يتجاوز الطريق الواضح أو العظيم أو المحشر أو كون الخلافة على منهاج النبوة أى طريقها)[٤]

أما المنهج بمعناه العلمى فهو مجموعة القواعد العلمية المنتظمة من أجل الوصول الى الحقيقه فى مختلف العلوم.

يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى : (إنه طائفه من القواعد العامه المصوغه من أجل الوصول الى الحقيقة فى العلم)[٥] ويقول : (ومعناه إذن الطريق المؤدى الى الكشف عن الحقيقه فى العلوم بواسطة طائفه من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل الى نتيجة معلومه)[٦] وقد أصاب

١- القاموس المحيط للفيروز أبادى جـ١ صـ٢١٨ ط ٢ سنة ١٩٥٣ الحلبى.

٢- سورة المائدة ايه رقم : ٤٨

٣- التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى جـ١٢ صـ١٢ ط دار الكتب العلميه سنه ١٩٩٠م

٤- انظر مسند الامام أحمد بن حنبل جـ١ صـ٢٣٦ ، جـ٤ صـ٤٥٣ ط دار الفكر العربى.

٥-٦ مناهج البحث العلمى تأليف الدكتور/عبد الرحمن بدوى صـ٣ ، ٥ ط٣ سنة ١٩٧٧وكالة المطبوعات بالكويت

الدكتور عبد الرحمن فى هذا التعريف للمنهج إلا أن الأمر الذى لا أوافقه عليه قط هو قوله: (ولكنه لم يأخذ معناه الحالى.. الا ابتداء من عصر النهضة الأوروبية.. فيكون فى كتابه الاورغانون الجديد صاغ قواعد المنهج التجريبى بكل وضوح وديكارت حاول أن يكشف المنهج المؤدى الى حسن السير بالعقل والبحث عن الحقيقة فى العلوم كما يدل على ذلك نفس عنوان كتابه مقال فى المنهج وأتى أصحاب بور رويال فعنوا بتحديد المنهج بكل وضوح وجعلوه القسم الرابع من منطقهم هذا) (١)

ولا أعرف كيف يقول الدكتور عبد الرحمن بدوى ذلك وهو العالم المدقق المحقق؟

هل لتجاهله فضل العرب..؟ أم لشدة ولائه للغرب؟!

أين كانت أوربا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين حينما كانت حضارة الاسلام وابتكارات المسلمين تعم آفاق الدنيا؟ كانت أوربا فى ظلام التقليد وما عرفت أوربا حضارة ولا تقدماً ولا نهضة ولا مدنية الا عندما انتقلت اليها العلوم الاسلامية والحضارة العربية.

ومن العجيب أن الذى يشهد بذلك هم أبناء الغرب فى الوقت الذى يتنكر فيه أبناء الشرق لحضارتهم وعلومهم. والفضل ماشهدت به الاعداء يقول الاستاذ بريفولت فى كتابه [إن روجر بيكون درس العلم العربى دراسة عميقه وأنه لاينسب له ولا لسميه الآخر أى فضل فى اكتشاف المنهج التجريبى فى أوربا ولم يكن روجر بيكون فى الحقيقة الا واحداً من رسل العلم والمنهج الاسلامى الى أوربه المسيحيه ولم يكف بيكون عن القول بأن معرفه العرب وعلمهم هما الطريق الوحيد للمعرفة الحقة لمعاصريه)(٢).

١- مناهج البحث العلمى د/ عبد الرحمن بدوى ص٣-٤.

٢-نقلا عن مناهج البحث عند مفكرى الاسلام للدكتور على سامى النشار ص٣٨٣ ط دار المعارف سنة١٩٦٦.

ويقول الاستاذ محمد إقبال :

(إن أراء روجر بيكون فى العالم أصدق وأوضح من آراء سلفه ومن اين إستمد روجر بيكون دراسته العلميه؟! من الجامعات العلمية فى الأندلس)[١]

ويقول الدكتور على سامى النشار:

(وقد خطا المنهج التجريبى بعد بيكون ومل خطوات مختلفه ومتعدده فى عهدنا الحاضر واتخذ صوراً أخرى على أيدى الاوربيين ولكن المسلمين هم أول من تنبه- فى تاريخ الفكر الانسانى- الى جوهره واتخذوه أساساً لحضارتهم وبهذا كانوا أساتذة الحضارة الأوربيه الحديثه الاولين)[٢]

ثانيا- التعريف بالإمام محمد عبده

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله من آل التركمانى. ولده فى شنرا من قرى الغربيـة سنة١٢٦٦هـ سنة ١٨٤٩ م ونشأ فى محلة نصر بالبحيرة وأحب فى صباه الفروسية والرماية والسباحة وتعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم إنتقل إلى الأزهر سنة ١٨٦٦ لاتمام دراسته ولقد درس الامام التصوف والفلسفة وباشرهما عمليا وكتب فيهما وعمل فى التعليم وكتب فى الصحف ولا سيما جريدة الوقائع المصرية وقد تولى تحريرها.

وأجاد الفرنسـية بعد الاربعين. ولما إحتل الانجليز مصر ناوأهم وشارك فى مناصرة الثورة العرابية فسجن ثلاثة أشهر للتحقيق ونفى رلى بلاد الشام سنة ١٢٩٩هـ سنة ١٨٨١ م وسافر إلى باريس فأصدر مع أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الأفغانى جريدة العروة الو ثقى. وعاد إلى بيروت فأشتغل بالتدريس والتأليف وسمح

١- نقلا عن المرجع السابق صـ٣٨٢ ، ٣٨٣.

٢- مناهج البحث عند مفكرى الاسلام صـ٣٨٥.

له بدخول مصر فعاد سنة ١٣٠٦ هـ سنة ١٨٨١م وتولى منصب القضاء ثم عين مستشاراً فى محكمة الإستئناف فمفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧ واستمر بها الى أن توفى بالاسكندرية سنة ١٣٢٣ هـ سنة١٩٠٥م ودفن بالقاهرة.[١]

يقول الدكتور عثمان أمين

[وفى ١٠ من يوليو سنة ١٩٠٥ توفى الأستاذ الامام وهو فى أوج نشاطه دون أن يتوافر له الوقت والوسائل لإنجاز جميع مشروعاته الإصلاحية واحتفلت مصر شعباً وحكومة تشييع رفاته كما كانت وفاته حدادا عاما فى جميع أرجاء العالم الإسلامى وأودع جثمانه مقبرة العفيفى بالقاهرة ونقش على قبره مايلى.

﴿ هو الحى الباقى ﴾

قد حططنا للمعالى مصجعا * ودفنا الدين والدنيا معاً

هنا دفن الاستاذ الحكيم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية ولد سنة ١٢٦٦هـ وتوفى ١٣٢٣هـ سبع وخمسون عاماً قضى أولها فى التعلم ووسطها فى التعليم وأخرها فى إعلاء الدين ونفع المسلمين][٢]

وقال أحد من كتبوا عنه (تتلخص رسالة حياته فى أمرين الدعوة الى تحرير الفكر من قيد التقليد ثم التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب وما للشعب من حق العدالة على الحكومة)[٣]

١-أنظر تاريخ الامام محمد عبده جامعه السيد محمد رشيد رضا ط أولى مطبعة المنارسنه١٣٢٤هـ جـ١ ٣.

٢- رائد الفكر المصرى: الامام محمد عبده تأليف د/ عثمان أمين صـ٥٧ ,٥٨ طـ٢ سنة١٩٦٥ مكتبة الانجلو.

٣- أنظر الأعلام للامام خير الدين الزركلى جـ٦ صـ٢٥٢ جـ٧١ دار العلم للملايين سنه١٩٨٦.

أما مؤلفات الاستاذ الامام محمد عبد فهى كثيره منها ماطبع ومنها مازال مخطوطاً ومنها مافقد.

ومن أهم مؤلفاته المطبوعة تفسير القرآن الكريم: لم يتمه وهو المعروف بتفسير المنار بدأه الاستاد الامام ووقف التفسير عند الايه رقم ١٢٥ من سورة النساء وأتمه الأستاذ محمد رشد رضا، رسالة التوحيد، الرد على هانوتو، رسالة الواردات، حاشية على شرح جلال الدين الدواني للعقائد العضدية، شرح نهج البلاغة، شرح مقامات البديع الهمذاني، الاسلام والرد على منتقديه ، الاسلام والنصرانيه بين العلم والمدنيه، الثوره العرابيه كما أنه قام الى جانب التأليف بجانب آخر هو جانب التحقيق.

ومن اهم الكتب التى قام بتحقيقها والتعليق عليها: كتاب البصائر النصيريه فى علم المنطق للامام عمر بن سهلان الساوى .كما قام بترجمه كتب كثيره من أهمها: الرد على الدهريين للسيد جمال الدين الافغانى[١]

* ثالثا: العقيدة

يعرف الجرجانى العقائد بقوله" مايقصد فيه نفس الاعتقاد دون العمل"[٢]

ومعنى ذلك أن الدين يقوم على أساسين الأول مايعتقده الانسان فى قلبه يسمى عقيدة والثانى ما يتعلق العمل ويسمى شريعة يقول الامام جلال الدين الدوانى: (المراد بالعقائد مايتعلق الغرض بنفس اعتقاده من غير تعلق بكيفية العمل ككونه تعالى حياً قادراً الى غير ذلك من مباحث الذات والصفات وتسمى تلك الاحكام أصولا وعقائد واعتقاديه يقابلها الاحكام المتعلقة بكيفية العمل كوجوب الصلاة والزكاه والحج والصوم وتسمى شرائع وفروعها وأحكامها ظاهره)[٣]

١- أنظر تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ،الاعلام خير الدين الزركلى جـ٦ صـ٢٥٢ ، ٢٥٣ ط دار العلم للملايين سنة١٩٨٦، رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده للدكتور عثمان أمين ص٢٩٧ ومابعدها

٢- التعريفات للشريف الجرجانى صـ١٣٣ ط مصطفى البابى الحلبى سنه ١٩٣٨م.

٣- حاشية جلال الدين الدوانى على العقائد العضديه من كتاب محمد عبده بين الكلاميين والفلاسفة تحقيق د/ سليمان دنيا القسم الاول صـ٢٧ ، ٢٨ ط البابى الحلبى سنة١٩٥٨م

وعلى ذلك فالامور التى نريد أن نقف مع الامام محمد عبده لنرى منهجه فيها هى أصول الاعتقاد أو الاصول العقديه بما يتعلق بمباحث الذات والصفات والافعال، أما بالنسبة لامور الشريعه من صلاة وزكاة وصيام وحج فهذه الاصول بينة بذاتها يتوقف العمل بها على العلم بثبوتها وكيفياتها.

الامر الاول : النظر والتقليد

إن أول أمر يقوم عليه منهج الامام محمد عبده فى إثبات العقيده الاسلامية هو ترك التقليد وتأسيس العقيدة على النظر العقلى.

ويرى الإمام محمد عبده أن الذى أمرنا بالنظر ونهانا عن التقليد هو القرآن الكريم وماذكر فيه من آيات توجب النظر وتدفع الإنسان إليه وتمنع من التقليد ويبن أن التقليد مذموم فى كل شئ ويوضح أن التقليد كما يكون فى الحق يكون فى الباطل يقول الإستاذ الأمام الغاية من هذا العلم- أى علم العقائد- القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها مع تنزيهه عما يستحيل إتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس إعتماداً على الدليل لا إسترسالا مع التقليد حسبما أرشدنا إليه الكتاب العزيز فقد أمرنا بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا إليه. ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه أباؤهم وتبشيع بما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وإمحاء وجودهم الملى. وحق ماقال فإن التقليد كما يكون فى الحق يكون فى الباطل وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الإنسان[1]!!

ويجب أن نلاحظ هنا عدة ملاحظات.

الملاحظة الأولى : أن الامام يريد أن يبن العقيدة لابد وأن تكون قائمة على اليقين وأن

١ - رسالة التوحيد للإمام محمد عبده ص ٢١ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد سنة ١٩٦٦ مكتبة صبيح

تحصيل اليقين في العقيدة فرض عين على كل مسلم ومسلمة أما الإشتغال بتحرير الأدلة ودفع شبه المعاندين والمعارضين فيرى الامام أن هذا الأمر فرض كفاية وواجب على الامام أن ينصب من يقوم لهذا الأمر فهو يقول (وحاصل الكلام أن الواجب العيني هو اليقين من أي طريق أخذ وقد كان حاصلا في زمن النبي وأصحابه وإنما إحتيج إلى طريق التفصيل بعد ذلك لردع المعاندين مخافة على عقول القاصرين ومثل هذا يجب كفاية خصوصاً في زماننا هذا الذي قام فيه القسيسون على ساق واخذوا يدعون الناس إلى التنصر في الأسواق وأخذت كلمة الكفر في الطغيان ووهت من كلمة الحق أركان والناس عن هذا غافلون)[١] ويقول في موضع أخر(إن تفصيل الدلائل واجب كفاية ويحرم على الامام إخلاء مسافة القصر منه وأن كل أحد يجب عليه النظر فيما لم يكن بديهيا عنده)[٢]

ولكن إذا كان الأمر كما يقول الامام- من أن البحث في علم التوحيد فرض كفاية- ألا يكون الأجدر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه:على حين أن لم ينقل ذلك عنه ولا عن أحد من أصحابه بل إن الثابت عنهم أنهم كانوا يكتفون من العوام من الاقرار باللسان والانقياد لأحكام الاسلام ولم يصح النقل عن أحد منهم أنه كلف المؤمنين بالنظر والإستدلال:

ويجيب الامام على مثل هذه الإعتراضات بجوابين

الجواب الأول : يقول فيه (إن الأيات والأحاديث الدالة على وجوب الفكر والنظر لاتكاد تحصى ومن المعلوم أن الفكر إنما هو لتحصيل المعارف ليس إلا وليس كل أحد يمكن من النظر على الوجه الأصوب فيجب أن يقام لهذا الأمر من يقوم به على

١- محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين تحقيق وتعليق د/ سليمان دنيا صـ٩-٢ مكتبة عيسى البابى الحلبى الطبعة الاولى سنة١٩٥٨م

٢- المرجع السابق صـ٢٠٧ .

وجه الإتقان والتفصيل وأخذ ذلك منه لا للتقليد بل للتسهيل وإنما لم يكن ذلك فى زمن النبى وأصحابه لأن الهمة إذذاك كانت فى جمع كلمة الإتفاق على أمر واحد وإن بحسب الظاهر وقطع دابر القاطعين لطريق الله البارزين للكفر والجحود: ثم بعد أن إتحدوا فى الكلمة أخذ لرؤساء رضى الله عنهم يبينون طريق اليقين فى خطبهم ومواعظهم ومحاوراتهم فى مجالسهم فإن الإشتغال بنشر العلوم إذذاك وتدريسها كان تقلل جمعية المقاتلين ويحتاج إلى ثروة إذ ذاك لم تكن للمؤمنين: فلما إستقر امر الإسلام وكثر جمعه وانتشر بين الخاص والعام وذهب من كانت تربيتهم بالكلام واحتيج إلى نشر العلوم والمعارف لعدم المربى العارف ولعزة الإسلام وكثرة المؤمنين إستغنى عن كثير من النفوس والأموال لأجل ذلك)[١]

فالإمام يرى أن طبيعة العصر هى التى تحكم بذلك ولما كانت طبيعة العصر الذى كان الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيه تفرض إجتماع الكلمة وتوحيد الصف لرفع راية الإسلام لم يحتج الأمر إلى ذلك ثم لما حدثت بعد ذلك الأمور الداعية الى القيام باثبات العقيدة وقيامها على النظر إحتيج إلى ذلك.

ويقول الأمام فى الجواب الثانى. (وأيضا كان الناس فى زمن النبى وأصحابه مؤيدين بالفيض الالهى لقربهم من أنوار النبوة وأما بعد ذلك فقد حصل الوهن فى الأمر وأستولت الغفلة وأنفتح باب الشر فاحتيج الى ذلك)[٢]

<u>الملاحظة الثانية</u>: أن إثبات العقيدة لابد وأن تكون قائمة على وجه اليقين الذى تطمئن إليه النفس وتكون النفس فيه معتمدة على الدليل والبرهان: ولكى توضح مفهوم اليقين الذى يريده الامام لابد أن نشير الى أن ميل النفس الى التصديق بالشئ له أربع درجات:

١- المرجع السابق صـ٢٠٨.

٢- المرجع السابق صـ٢٠٨، ٢٠٩.

الأولى : أن يستوى لديها التصديق والتكذيب ويعبر عنه بالشك ولاتميل النفس الى الحكم على الشئ بتصديق ولا تكذيب ولا اثبات أو نفى بل يستوى لديها امكان الامرين.

الثانية : أن تميل النفس الى أحد أمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لايمنع ترجيح الامر الاول ومعنى هذا أن تكون النفس أميل الى أحد الأمرين اكثر من ميلها الى نقيضه وهذه الحالة تسمى ظناً.

الثالثة : أن يستولى على النفس التصديق بشئ بحيث يغلب عليها ولا يخطر ببالها غيره ولو خطر بالبال تأبى قبوله. ولكن ليس ذلك عن معرفه محققه إذا لو تأمل صاحبها وأصغى الى التشكيك والتجويز لاتسعت له وهذه الحاله تسمى اعتقاداً مقاربا لليقين ويتمثل ذلك فى اعتقاد المقلدين لاصحاب المذاهب حيث ترسخ فى نفوسهم المعتقدات بمجرد السماع حتى ان كل فرقه تثق بصحة مذهبها وإصابة إمامها ومتبوعها.

الرابعة: أن تعرف النفس أمراً ما معرفة حقيقيه عن طريق البرهان الذى يبدد أي شك ويدفع كل ريب وهذه الحالة تسمى يقينا فكل علم يحصله الانسان عن طريق البرهان يكون علماً يقينيا(١).

واليقين الذى يطلبه الامام محمد عبده هو الذى ذكره فى الحالة الرابعه ولذلك فهو يقول فى نصه السالف.... والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل لا استرسالا مع التقليد.

الملاحظة الثالثة: أن الذى يدعو اليه الامام محمد عبده لافادة اليقين فى العقيدة هو النظر فى ظواهر الكون فى أرضه وسمائه وتأمل آثار الصنعه فهو نظر يختلف عن نظر السابقين عليه كالنظر فى الجواهر والاعراض والامكان والوجوب الخ.

١- انظر معارج القدس للامام الغزالى صـ ٤٧ ط السعادة بمصر ط اولى سنة١٣٤٦هـ.

الملاحظة الرابعة : أن التقليد فى العقائد قد يؤدى الى محو الاعتقاد وإثبات الشريك مع الله سبحانه كما أنه يؤدى الى محو الوجود لانه تعطيل لأشرف نعمة أنعم الله بها على الانسان وهى نعمة التفكير والتدبر لما فى الكون من آثار.

ويرى الامام محمد عبده أن هذا المنهج القائم على النظر وترك التقليد فى أمور الدين هو منهج الصحابة والتابعين العالم منهم والامى حيث يقول

(والذى يعرفه كل واقف على تاريخ الصدر الاول من المسلمين هو أن أهل القرنين الاول والثانى لم يكونوا يقلدون أحداً أى لم يكونوا يأخذون بآراء الناس وأقوال العلماء بل كان العامى منهم على بينة من دينه يعرف من أين جاءت كل مسألة يعمل بها من مسائله اذ كان علماء الصدر الاول رضى الله عنهم يلقنون الناس الدين ببيان كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكان الجاهل بالشئ يسأل عن حكم الله فيه فيجاب بأن الله تعالى قال كذا أوجرت سنه نبيه على كذا فإن لم يكن عند المسئول فيه هدى من كتاب أو سنة ذكر ماجرى عليه الصالحون ومايراه أشبه بما جاء فى هذا الهدى أو أحال على غيره)(١)

واذا كان الامام محمد عبده قد بين بأن هذا هو منهج الصحابة والتابعين أصحاب القرنين الاول والثانى: فما هو منهج أصحاب القرنين الثالث والرابع خاصة وأن هذين القرنين كثر فيهما الاجتهاد بالرأى والاستنباط واستخراج الفروع من أصولها وكثرت الفلسفات ووجدت الفرق..الخ

يجيب الامام محمد عبده على ذلك بأن العلماء الذين تصدوا للاستنباط واستخراج الفروع من أصولها كانوا يسيرون على منهج الصحابة والتابعين فى أمور الدين: وهنا نجد أن الامام محمد عبده يشير الى أمر هو فى غاية الاهمية وهو: أنه ليس كل من وجد فى القرنين الثالث والرابع كان يسير على منهج الصحابه والتابعين والا كان الفلاسفه والمعتزله والشيعه يسيرون على منهج الصحابه والتابعين مع تباين

١-تفسير المنار- تأليف السيد محمد رشيد رضا جـ٢صـ٦٦ الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة١٩٧٣

منهج كل منهما عن الاخر بل إنه يريد أن يبين أن الذين تصدوا للاستنباط واستخراج الفروع من الاصول هم وحدهم دون سواهم الذين كانوا يسيرون على منهج الصحابه والتابعين وهم بعض العلماء ومنهم الأئمة الاربعة.

يقول الامام محمد عبده:

(ولما تصدى بعض العلماء لاستنباط الاحكام وإستخراج الفروع من أصولها- ومنهم الأئمة الاربعه - كانوا يذكرون الحكم بدليله على هذا النمط فهم متفقون مع الصحابه والتابعين- عليهم الرضوان-)[١] فى ذكر الاحكام بدليلها

ويستدل الامام محمد عبده على ذلك بما روى عن الأئمة الاربعة من النهى عن الاخذ بأقوالهم دون معرفة الدليل.

قال الاستاذ الامام فى الدرس (أنه نقل عن الأئمة الاربعه رضى الله عنهم النهى عن الاخذ بقولهم دون معرفة دليلهم والامر بترك أقوالهم لكتاب الله أو سنة رسوله إذا ظهرت مخالفة لهما أو لاحدهما)[٢]

من هذه الاقوال ماذكره السيد رشيد رضا عن الامام ابى حنيفه والامام مالك رضى الله عنهما حيث يقول :

(وفى روضة العلماء قيل لابى حنيفة رضى الله إذا قلت قولا وكتاب الله يخالفه قال اتركوا قولى لكتاب الله فقيل اذا كان خبر الرسول يخالفه فقال إتركو قولى لقول الرسول صلى الله عليه وسلم فقيل اذا كان قول الصحابة يخالفه فقال: اتركوا قولى لقول الصحابة.

وروى حافظ المغرب بن عبد البرعن مالك بن أنس قال، انما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا فى رأيى فكل ماوافق الكتاب والسنه فخذوه وكل ما لم يوافق

١- المرجع السابق جـ٢ صـ٦٦.

٢-تفسير المنار جـ٢ صـ٦٦.

الكتاب والسنه فاتركوه)[١]

وعلى هذا المنهج الذى سار عليه الصحابة والتابعون بنى الامام محمد عبده قاعدته الاصليه: (على أنه لايجوز لاحد أن يأخذ بقول أحد فى الدين مالم يعرف دليله ويقتنع به)[٢]

ولم يقف الامام محمد عبده عنده هذا بل تعداه فذكر رأى المتأخرين من العلماء والذين يجوزون التقليد فى أصول الدين وفروعه ورد عليهم حيث يقول :

(وهناك قول للمتأخرين مبنى على أن الامة جاهله لاتعرف من الدين شيئاً لا من أصوله ولامن فروعه ولاسبيل الى كفر هؤلاء المنتسبين الى الاسلام ولا الى الزامهم معرفة العقائد الدينية من دلائلها والاحكام الشرعيه بأدلتها وعللها فلا مندوحه إذن عن القول بجوار التقليد فى الاصول.... والتقليد فى الفروع العلميه بالاولى)[٣]

ويرد الامام محمد عبده هذا الرأى بردين: أحدهما اجمالى والاخر تفصيلى أما الرد الاجمالى فيقول فيه:

(وهذا القول نحالف لاجماع سلف الامه وماقاله الا الذين يحبون ارضاء الناس باقرارهم على ماهم عليه من الجهل واهمالهم ماوهبهم الله من العقل ليتطبق عليهم قوله تعالى" ولقد ذرأنالجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالانعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)[٤] والمراد أن قلوبهم أى عقولهم لاتفقه الدلائل على الحق واعينهم لاتنظر الايات نظر استدلال وأسماعهم لاتفهم النصوص فهم تدبر واعتبار فهذه صفات

١- المرجع السابق جـ٢ صـ٦٧.

٢- المرجع السابق جـ٢ صـ٦٦.

٣- المرجع السابق جـ٢ صـ٦٧، ٦٨.

٤- سورة الاعراف ايه ١٧٩.

المقلدين)[١] وأما الرد التفصلى فإن الامام محمد عبده بين أن الدين الاسلامى منه ماهو عقيده ومنه ماهو شريعه أمام بالنسبة للعقيدة فلا يجوز التقليد فيها أبدا وأما بالنسبة للشريعة فمنها أصول ومنها فروع فبالنسبة للاصول لايجوز التقليد فيها أبدا فهى واضحة جلية بنفسها وأما فروعها فيعذر العامى بجهلها وإذا أقبل العامى على أمر منها فلابد من التحرى فيها.

يقول الامام محمد عبده:

(يجب النظر فى اثبات العقائد بقدر الامكان ولايشترط فيه تأليف الادله على قوانين المنطق ولا التزام طريق المتكلمين فى مثل بناء الدليل على فرض انتفاء المطلوب ولا إيراد الشكوك والاجوبة عنها بل أفضل الطرق فيه وأمثلها طريق القرآن الكريم فى عرض الكائنات على الأنظار وإرشادهم الى وجه الدلاله فيها على وحدانية مبدعها وقدرته وحكمته. هذا هو حكم الله الصريح فى المسألة فإنه أمر بالعلم بالتوحيد فقال:" فاعلم أنه لا إله الا الله:"[٢] وقال:" إن الظن لايغنى من الحق شيئاً"[٣] وطالب بالبرهان وجعله آيه الصدق:" قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين"[٤])[٥]

ثم بين الأمر فيما يتعلق بالأحكام ومسائل الحلال والحرام فأثبت أن التقليد فيها مذموم أيضاً حيث يقول:

(وأما الأحكام ومسائل الحلال والحرام فمنها مالا يسع أحداً التقليد فيه وهى ماعلم من الدين بالضرورة كوجوب الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أجمع عليه من كيفياتها وفروضها فإن أدلتها وأعمالها متواترة... ومنها فروع دقيقة مستنبطة من أحاديث غير متواترة لم يطلع عليها جميع المسلمين وقد مضت سنة السلف الصالح فى

١-تفسير المنار جـ ٢ صـ٦٨.　　٢-سورة محمد آيه ١٩

٣- سورة　　٤- سورة ١

٥- تفسير المنار جـ ٢ صـ٦٨.

مثلها بأن من بلغه حديث منها بطريق يعتقد به ثبوته عمل به ولم يوجبوا على أحد ولو منقطعا لتحصيل العلم أن يبحث عن جميع ماروى من هذه الأحاد ويعمل بها كيف والصحابة عليهم الرضوان لم يكتبوا الحديث ولم يقصدوا لجمعه وتلقينه للناس بل منهم من نهى عن كتابته ومن حدث دائما كان يقول مايعلم إذا عرض له سبب مع المخاطبين فمثل هذه الفروع يعذر العامي بجهلها بالأولى ويجب عليه التحرى فى قبول مايبلغه منها فلا يقبل رواية كل أحد ولا يسلم بكل مافى الكتب لكثرة الموضوعات والضعاف فيها)(١)

ويرى الامام محمد عبده أن هذا المنهج لامشقه فيه ولا حرج إلا لمن أراد أن يترك دينه ويكتفى ببعض العادات والتقاليد التى نقلت إليه عن طريق أجداده وأبائه والتى لايستطيع الانسان أن يميز فيها بين السنة والبدعة: حيث يقول(ولا مشقة ولا حرج على المسلمين فى إلتزام هذه الطريقة إلا إذا كانوا يريدون ترك دينهم برمته إكتفاء ببعض العادات والأعمال التى لا يكاد يسهل عليهم تمييز السنة فيها من البدعة تقليداً لابائهم ومعاشريهم)(٢)

ثم بين الإمام أنه لاعذر لأحد فى التقليد وأن المقلد مشرك معدد حيث يقول عند شرحه لقوله تعالى(إذ تبرأ الذين أتبعوا من الذين أتبعو ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب....الأية(٣)

(لاعذر لأحد فى التقليد وأن حكم الأية يستغرق جميع المقلدين فهم إتخذوا مقلديهم أندادا وسيتبرأ المتبوع من التابع ان يرون العذاب وتتقطع بهم الأسباب)(٤)

وبعد أن بين الأمام فساد التقليد فى العقيدة والشريعة وبين أنه لابد من النظر العقلى المفيد لليقين الذى تطمئن إليه النفس نراه فى موضع أخر يقيم الدليل العقلى على فساد التقليد ويبين أن المقلد كافر وأن ذلك هو ما أجمع عليه العلماء ولاسيما

١- تفسير المنار جـ ٢ صـ٦٨ ، ٦٩.
٢- المرجع السابق جـ٢ صـ٦٩
٣- سورة البقرة الأية رقم ١٦٦.
٤- تفسير المنار جـ ٢ صـ ٦٩.

الأمام الأشعري: حيث يقول

(قد جمع أهل التحقيق من كل طائفة خصوصا الشيخ الاشعرى على أن المقلد فى اصول دينه ليس بمستيقن وكل من ليس بمستيقن فى الأصول فهو على ريب فيها وكل من كان كذلك فهو كافر[١]

أما الكبرى فظاهرة، وأما الصغرى فقد أقمنا عليها برهانا حاصله:

أن المقلد إما أن يعلم حقية ماعليه مقلده .أم لا.

١-يقول الأمام السنوسى(وأختلفوا فى الاعتقاد الصحيح الذى حصل بمحض التقليد فالذى عليه الجمهور والمحققون من أهل السنة كالشيخ الاشعرى والاستاذ (أبو إسحاق الأسفرائيي) والقاضى الباقلاني) وامام الحرمين(الجويني) وغيرهم من الأئمة أنه لايصح الاكتفاء به فى العقائد الدينية وهو الحق الذى لاشك فيه وقد حكى غير واحد الاجماع عليه وكأنه لم يعتد بخلاف الحشوية وبعض أهل الظاهر إما لظهور فساده وعدم متانة علم صاحبه أو لإنعقاد إجماع السلف قبله على ضده) انظر عمدة أهل التوفيق شرح عقيدة أهل التوحيد الكبرى للامام أبى عبد الله محمد بن يوسف السنوسى الحسنى ط أولى مصطفى البابى الحلبى سنة١٣٥٤ هـ سنة١٩٣٦ م صـ٣٩ هذا وقد إستدل أصحاب هذا الرأى بأدلة كثيرة من القرآن الكريم والسنةالنبوية المطهرة وماأجمعت عليه الأمة.

وقد أقام الباقلاني دليلا عقليا على فساد التقليد خلاصته: أن التقليد فى علم التوحيد محال لأنه: أما يؤمر بتقليد من شاء؛ أو بتقليد المحق؛ أو بتقليد من غلب على ظنه أنه حق؛ والامر بتقليد من شاء، يلزم منه أن من قلد كافراً يكون ممتثلا وهو خلاف الإجماع وإن أمر بتقليد المحق فإما أن يؤمر بتقليد المحق عند الله تعالى بحسب نفس الأمر واما يؤمر بتقليد المحق عند الله بحسب علمه هو بكونه محقا؛ والاول من التكليف بمالا يطاق لأنه ليس فى قدرة المرء العلم بالمحق عند الله والتكليف بمالا يطاق باطل؛ والثانى لايعلم كونه محقا الا بعد النظر القويم؛ واذا نظرا خرج عن كونه مقلدا: وأما بتقليد من غلب على ظنه أنه على الحق كما فى الفروع لزم أن من قلد مبتدعا أو كافرا فى نفس الامر بناءاً على مارجح عنده من كونه محقا : يكون ممتثلا: والاجماع على خلافه: انظر عمدة أهل التوفيق للإمام السنوسى صـ٤٤ ـ ٤٥

ليس بعد العلم إلا التردد أو الجزم بالنقيض

وعلى الأول : إما أن يعلم الحقية بنظره أو بتقليداً آخر: على الثاني ننقل الكلام اليه ويتسلل وعلى الاول: قد صار مجتهداً ناظراً لامقلدا وهو خلاف المفروض وليس بطلان التسلسل لما يبرهنون عليه بل لاستلزامه عدم العلم اذ لم يصل الى مابه يعلم فإذن كل مقلد ليس بمستيقن)(١)

وإذا كان الامام قد أثبت أن التقليد فاسد وأن المقلد كافر وأنه لابد من النظر والتحقيق فإن هناك أصولا فى الدين تدرك بالنظر وأصولا أخرى لا تدرك الا عن طريق السماع فكيف السبيل الى ذلك؟

يجيب الامام على ذلك بأن الانسان المتدين واجب عليه النظر لاقامة الادلة اليقينيه على اثبات وجود الله ثم اثبات النبوات بكل ماجاءت به مع التسليم والتصديق والتفويض حيث يقول:

(والحق الذى يرشد اليه الشرع والعقل أن يذهب الناظر المتدين الى إقامة البراهين الصحيحه على اثبات صانع واجب الوجود)(٢) ثم منه الى اثبات النبوات ثم يأخذ كل ماجاءت به النبوات بالتصديق والتسليم بدون فحص لما تكنه الالفاظ الا فيما يتعلق بالاعمال على قدر الطاقة ثم يأخذ طريق التحقيق فى تأسيس جميع عقائده بالبراهين الصحيحه وكل ما أدت اليه ماكان لكن بغاية التحرى والاجتهاد)(٣)

وإذا كان الامام محمد عبده قد وافق جمهور المحققين من العلماء فى رفض التقليد ووجوب النظر فهل يوجد فرق بين التقليد والاتباع أم لا؟

١-الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين تحقيق وتقديم د/سليمان دنيا القسم الاول ص٢٣ ـ ٢٤

٢-والملاحظ أن التعبير غير مفهوم فربما أن هناك خطأ مطبعيا واللفظ مفهوم على اساس القول (اثبات الصانع- واجب الوجود).

٣- المرجع السابق ص٢٥.